« فيه شفاء للناس »

قرآن كريم

الصيدلة علم وفن وإنسانية

من هو الصيدلى ؟

يبدو أن معرفة الكثيرين بصاحب هذه المهنة لا تزيد عن شرائهم الأسبيرين أو الفيتامينات أو العقاقير التى يصفها الطبيب المعالج من حبوب أو حقن أو شراب ، وما قد يجرى من حديث بين المريض والصيدلى عن طريقة تناول الدواء .

لم تكن الصيدليات فى عهودها الأولى سوى حوانيت تبيع أنواعاً كثيرة من الأعشاب الطبية أو أوراقها وزهورها والبذور والثمار والجذور فى صورتها الطبيعية أو على هيئة مسحوق أو مغلى . كالراوند والحنظل والصبر والشيح وخشب الكينا والقرفة ومسحوق العرقسوس و (البلادونا) وثمار الخشخاش وبذوره والحبهان والشمر والنعناع والينسون ، وبعض الأملاح مثل سلفات الصودا والمانيزيا والملح الإنجليزى وغيرها مما كانوا يعترفون بفوائده الطبية .

وازداد عدد الأعشاب واستخرجت منها الخلاصات بالغلى والتركيز ، أو بواسطة الكحول.. وأضيفت أملاح معدنية جديدة كأملاح الحديد والبزموت والزئبق والكبريت والبروم واليود والفوسفور والزرنيخ . وتحولت محال العطارة إلى صيدليات بعد أن أصبحت تقوم بتحضير الأدوية من أشربة وحبوب ومساحيق ومراهم . حسب مواصفات متفق عليها تحولت فيما بعد بما أدخل عليها من تعديلات علمية إلى دساتير طبية مكتوبة وطرق

معينة للتحضير ، ومعايير تقيس وتزن العناصر الداخلة فى تلك الأدوية بعناية ودقة . وقفزت صناعة الدواء منذ نصف قرن تقريباً من أعشاب وخلاصاتها وأملاح معدنية بسيطة إلى مركبات كيماوية عضوية بفضل الكشوف التى قامت بها معامل الكيمياء عندما بدأت تنمو وتزدهر وأخذت تضم إلى مصانعها معامل ومعاهد للأبحاث يعمل فيها أساتذة جامعيون وأطباء وصيادلة وكيماويون يستنبطون كل يوم أدوية جديدة . فأخرجوا للعالم الأنسولين والطعوم والأمصال والسلفا والبنسلين وأنواع (المايسين) والهورمونات والفيتامينات وألوفاً من المركبات الكيماوية تستخرج من عناصرها الطبيعية . ثم أصبح فى الإمكان تحضير عدد كبير منها بطرق كيماوية تركيبية وبكميات ضخمة فانخفضت أثمانها إلى حد أنها أصبحت فى متناول الجميع .

وكانت تلك المستحضرات الطبية الجديدة علاجاً سحرياً ناجعاً لأمراض وحميات كثيرة كانت تودى بحياة الملايين كل عام .

لقد قدّمت الصيدلة للمجتمع الإنسانى خدمات عظيمة قام بها صيادلة وكيماويون من بينهم أسماء خلدها التاريخ وأخرى لجنود مجهولين تعترف البشرية بكشوفهم وجهودهم وتضحياتهم .

ومنذ بدء الخليقة عرف الإنسان الصيدلة والعلاج بالعقاقير وآمن بقدرتها على شفائه من أمراضه . وإن كان قد خلط فى بعض الأحيان بين الشفاء بواسطة الدواء والسحر والآلة . ثم تقدم إلى الأمام خطوات ، ومرت ألوف الأعوام وأصبح فى متناول يده طرق واضحة للعلاج وأدوية جربها المرضى .

وكلما ازدادت المدنية تقدماً بفضل الكشوف العلمية وتطور الصناعة عامة ، ومن بينها صناعة الأدوية ، ازداد عدد تلك المستحضرات الطبية ذات الفائدة المجربة ووضحت مهمة الصيدلى كرجل توكل إليه عملية تحضير

الأدوية، وأصبح لكل من الطبيب والصيدلى عمله الفنّى الذى يختص به حتى كان ازدهار الحضارة العربية وظهر الصيادلة لأول مرة فى التاريخ. وأنشئت الصيدليات ووضعت دساتير وقوانين خاصة بها. وقامت الدولة بالتفتيش عليها ومراقبتها فأصبح للصيدلى مهنته ذات المسؤولية الخطيرة وصاحبها موضع ثقة الدولة والشعب.

واشتغل الصيدلى حينذاك بتحضير العقاقير من الأعشاب وأملاح المعادن. وأحب مهنته وشغف بالعلم والبحث وأخذ يجرى التجارب على

الصيادلة فى معملهم

المواد الكيماوية والخلاصات المختلفة باحثاً عن إكسير الحياة وحجر الفلاسفة، تلك التى كان لها أعظم الفضل فيما وصلت إليه الكيمياء فى العصر الحديث من كشوف رائعة ومعجزات لم يكن يحلم بها الأجداد.

كانت ألغازاً غامضة وأسراراً مغلقة أمام ذلك الكيماوى الذى أطلقوا عليه اسم السيماوى Alchemiste يحاول بواسطة أجهزته الصغيرة التى يعدها بنفسه أن يفتح مغاليق أسرارها ويفيد منها لتحقيق أحلامه بالحصول على الإكسير الذى يطيل الحياة، وحجر الفلاسفة ليحول معادن، كالنحاس إلى ذهب، ودفعتهم آمالهم وأحلامهم إلى إجراء البحوث والتجارب فى حوانيتهم، وجعلوا ركناً منها كمعامل يعدّون فيها أجهزتهم ويجرون تجاربهم.

إن قصة السيماويين أشبه بقصة ذلك الرجل الذى أوصى أولاده قبل وفاته بالبحث عن كنز من الذهب مدفون تحت أرض المزرعة.. وحفر أبناؤه كل أجزاء الحقل إلى أعماق بعيدة ولكنهم لم يعثروا على أى أثر للذهب، وعندما عادوا إلى زراعتها من جديد بعد المجهود الذى بذلوه فى تقليب تربتها عادت عليهم بمحاصيل وافرة وأدركوا ما كان يقصده أبوهم.

وكذلك أيضاً كانت الثمار الجليلة الفائدة التى جناها رجال الكيمياء الأوائل من جهودهم وتجاربهم ودراساتهم وبحوثهم فى سبيل الحصول على الذهب، فكانت خيراً للإنسانية أعظم قدراً من الذهب.

بدأت تلك العمليات الكيماوية الساذجة أيام ازدهار العلوم فى الإسكندرية فى مصر القديمة، ثم عند العرب الذين نقلوها معهم إلى أوربا، وازداد عدد أولئك الكيماويين الأوائل خلال عدة قرون، يعدون العقاقير لشفاء المرضى. ويبحثون عن خواصها السحرية حتى يتاح لهم تحضير إكسير الحياة أملاً فى إعادة الشباب إلى الشيوخ. بل طمعوا فى أن

يمنحهم ذلك الإكسير حياة الخلود . ثم تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نبيلة .

ولكنهم بالرغم من تنقيبهم وتجاربهم لم يصلوا إلى إكسير الحياة ولا إلى حجر الفلاسفة . ولكن ما بذلوا من جهود لم تضع سدى بل هى الأساس لكيمياء اليوم ، والأدوية التى تزخر بها الصيدليات ومعامل الكيمياء ليست فقط للأغراض الطبية ، بل فى جميع مظاهر تقدم الأجيال الحاضرة فى الزراعة والصناعة .

لقد كان لهم الفضل فى الكشف عن حامض الكبريتيك والنتريك وماء الذهب والأنتيمون والزرنيخ والزنك والبزموت والفوسفور والنشادر والأملاح المعدنية الهامة ، والكؤول والأثير وملح البارود وأجهزة للترشيح والتقطير والتصعيد والترسيب والباورة والتنقية وغيرها ما زالت تستعمل حتى اليوم .

ألم تتحقق آمالهم بعد مئات الأعوام ؟! ... وحوّلت الطاقة الذرية المعادن بعضها إلى البعض الآخر . وأضحى فى مقدور العلم أن يحوّل المعادن الخسيسة إلى معادن نبيلة ، وإن كانت حتى يومنا هذا باهظة التكاليف ، فسوف يأتى يوم يتسنى ذلك بنفقات اقتصادية وطرق عملية .

لم تكن العقبات لتثنيهم عن متابعة عملهم وبحثهم بالرغم مما اتهموا به من سحر وكذب وغش . وليس معنى ذلك إنكار وجود فئة من بينهم اتخذوا الغش والخداع وسيلة للكسب . ألا يوجد مع الذهب والفضة وغيرهما من المعادن الثمينة من الأقذار والأوساخ مايسمى بالخبث لا يلبث أن ينفصل عند التنقية .

كان الكيماويون الأوائل يدرسون ويبحثون من أجل لذة العلم وخير الإنسانية ، يعملون أحياناً فى جو من القلق والاضطراب والتهديد بالعقاب

والموت أحياناً . فحنين بن إسحاق الذى أراد الخليفة اختبار أمانته ، فأوعز إليه بوضع السم فى طعام أحد أعدائه فرفض وبقى فى السجن عاماً كاملا . وصمم على الرفض مرة ثانية بعد أن دعاه الخليفة من السجن — حتى لو أدى ذلك إلى الموت . . ولكن الخليفة كان يريد اختبار صدق أمانته وكافأه أجزل المكافأة .

وروجر بيكون الذى رفض أن ينكر كشوفه ، فقضى بقية عمره سجيناً . وترك ابن سينا وجابر بن حيان والرازى والبيرونى وابن الهيثم وغيرهم ، مئات الكتب والبحوث فى الطب والصيدلة ومختلف ألوان العلوم والفنون والآداب . ظل بعضها يدرس فى جامعات أوربا حتى أوائل القرن السابع عشر بالرغم مما كان يتخلل حياتهم أحياناً من سجن ونفى وتشريد أو تهديد بالموت .

ومن أعظم من جاء بعدهم (باراسلوس) فى القرن السابع عشر ، وبالرغم من أنه أحرق مؤلفات من سبقه من الأطباء والكيماويين من أمثال أبقراط وجالينوس وابن سينا وجابر بن حيان وغيرهم من الخالدين ، إلا أنه أسس الكيمياء الحديثة التى تقوم على إجراء التجارب العملية .

وفى أواسط القرن الثامن عشر ظهر فجر جديد ، وأخذت علوم الكيمياء والصيدلة القائمة على الدراسة والبحث العلمى تحتل المكان اللائق بها فى عالم العلوم الحديث .

إن قصة الصيدلة منذ العصور الأولى للتاريخ ليست قصة العقاقير فحسب . بل هى صفحة من تاريخ كفاح الطب والصيدلة ضد المرض كفاحاً إنسانيا عظيماً جديراً بأن نتتبعه خلال العصور المتعاقبة منذ كان الطبيب والصيدلى رجلا واحداً . بل منذ كان المريض هو الصيدلى والطبيب الذى يجرب بنفسه الأعشاب المختلفة . ثم تطور المجتمع وارتباطه الوثيق بالطب والصيدلة حتى وصل إلى الصورة التى يرى عليها اليوم .

أحد معامل البحوث الكيماوية للدواء

والصيدلة كغيرها من المهن تتجه إلى الاشتراكية الإنسانية المثلى . بل إنها سارت شوطاً بعيداً فى تحقيق اشتراكية العلاج والدواء والوصول إلى نظام شامل للتأمين الصحى لجميع طبقات المجتمع .

والحياة فى تطور مستمر . وحياة الصيدلى فى ميدان مهنته مغامرة رائعة إذا عرف كيف يعدّ لها ويدرس ما يتوقعه من تغييرات تلائم ظروف الحياة وتقدمها . وليتوفر للوطن أولئك الذين يعملون من أجل مهنتهم لا يقيسون عملهم بما وراءه من كسب مادى بل ينظرون إلى أداء خدمات عامة للمجتمع قد لا تعود عليهم بالثروات الضخمة إنما بإرضاء ضمائرهم ويشعرون أنهم قبل كل شىء يعملون من أجل خير الإنسانية .

وقد تفتحت أمامهم أوسع الآفاق للنجاح فى مهمتهم بما أقيم من مصانع للكيماويات تمد البلاد بحاجتها من المواد الأساسية اللازمة لتركيب الأدوية والعقاقير الجاهزة وأغذية الأطفال المحفوظة كالألبان المجففة والتفاح والجزر والخروب . ثم البحث عن الأملاح وخاماتها المعدنية التى تزخر بها أراضى الجمهورية العربية وجبالها وصحاريها وبحارها والاستغناء بذلك عن استيرادها من الخارج .

وكذلك التوسع فى زراعة النباتات الطبية والعطرية والعثور على أنواع جديدة ذات فوائد طبية أكيدة عن طريق إجراء التجارب عليها فى معاهد البحوث ومصانع العقاقير وفى المستشفيات .

لقد قامت شركة النصر للأدوية فى أبى زعبل . هذه المدينة الدوائية الضخمة التى كانت حلماً طالما راود الأطباء والصيادلة بل أهل الوطن جميعاً فحقق الله آمالهم إذا لم تترك الثورة ميداناً تستفيد منه البلاد دون تحقيقه تحقيقاً كاملا وعلى أوسع نطاق . وبفضل هذه المصانع ومصانع مؤسسات مصر وممفيس وتنمية الصناعات الكيماوية والإسكندرية (نصار) ودوشن والقاهرة وغيرها ومشاركة بعض المصانع العالمية فى إنشاء مصانع لها

فى الجمهورية العربية المتحدة تصنع أدويتها ذات الشهرة العالمية محلياً . فقاربت البلاد حد الاكتفاء الذاتى . بل أخذت فى تصدير جزء من منتجاتها إلى بلاد الوطن العربى وإفريقيا . . .

ومنذ عامين تقريباً أنشىء مركز البحوث الدوائية ترتكز عليه صناعة الأدوية لتخريج أجيال جديدة من الكيماويين والصيادلة الإخصائيين فى مختلف النواحى الفنية .

إن الصيادلة العرب يذكرون دائماً أنهم أمناء على إرث علمى ضخم من أسلافهم الروّاد الأول من الكيماويين والصيادلة العرب والمصريين القدماء . وإنهم بدورهم سيقومون بتخليد أزهر العصور علماً وتقدماً وازدهاراً فيزيدون هذا الإرث بكشوف وأبحاث جديدة تزيد من مجد وطنهم العربى الإفريقى الكبير ويكون شعارهم دائماً : « الفخر بمهنة الصيدلة تلك التى يزداد قدرها بالعلم والتضحية والعمل والشعور » .